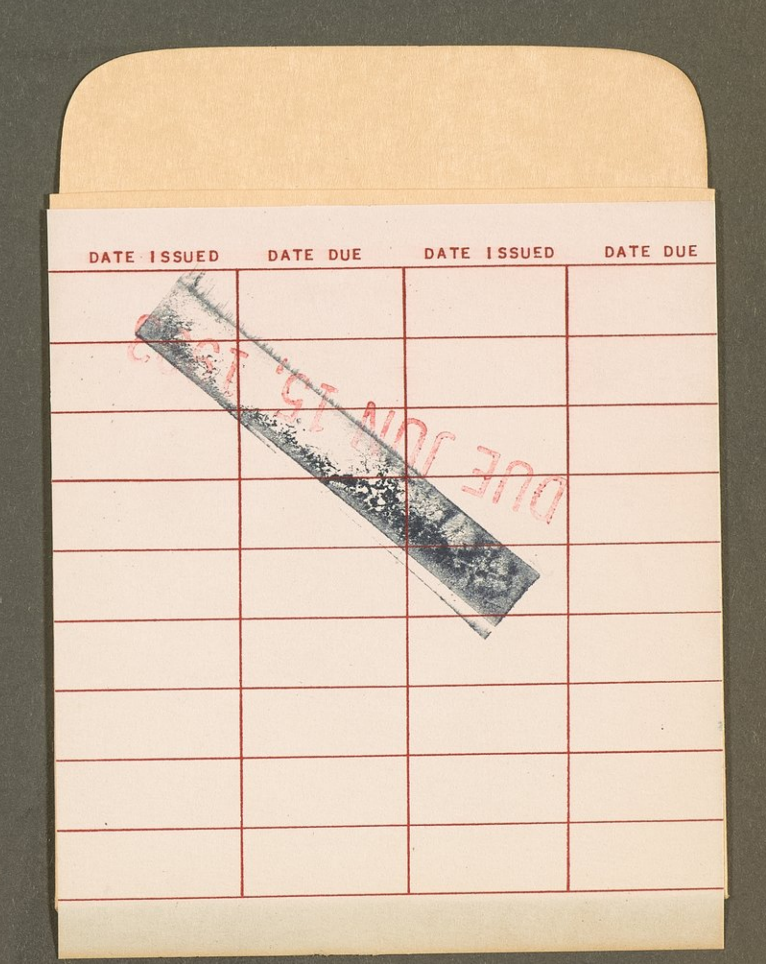
معهد مولاي الحسن

ذكريات

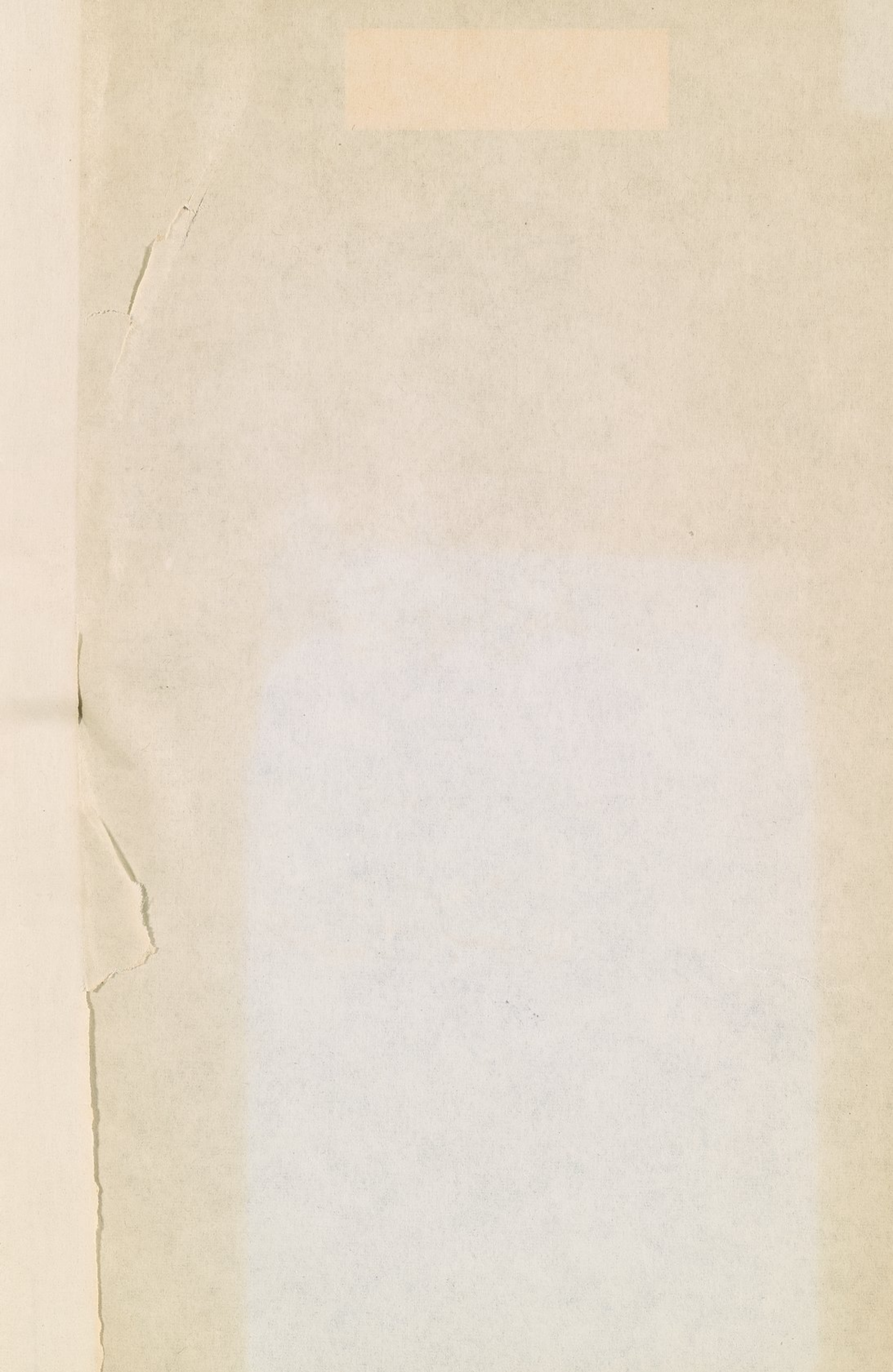
مشاهير رجال المغرب

25

عبد الله كنون


DATE ISSUED
DATE DUE
DATE ISSUED
DATE DUE


PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY
PAIR
32101 021184831



ذكريات

مشاهير رجال المغرب

بقلم

عبد الله كنون

مطبعة كريماديس ـ شارع محمد الطريس 17 ـ تطوان (المغرب)

25

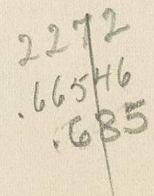
ابن بطوطة

ابن بطوطة

اسمه ونسبه ـ مولده ـ نشأته العلمية وتربيته الخلقية ـ مكانته بين الرحالة ـ تقويم الرحلة ـ ابتداء رحلته الاولى الى اقطار الشرق ـ رحلته الثانية الى الاندلس ـ رحلته الثالثة الى السودان ـ عودته الى المغرب واملاؤه رحلته ـ ولايته القضاء بالمغرب ـ وفاته ـ ضريحه بطنجة ـ كلام الناس فيه وتزكية ابن مرزوق له ـ دفاع ابن خلدون عنه ـ رد انتقاد آخر على الرحلة.

هو الرحالة العالمي الشهير ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن يوسف اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة، بفتح الباء وضم الطاء الاولى مع التخفيف، وبعضهم يشددها والجاري على الالسنة خلافه.

ولواتة التي ينسب اليها هي بفتح اللام قبيلة مغربية منازلها الاصلية ببرقة من ارض طرابلس، وتوطن منها بجهات المغرب المختلفة اقوام نبغ منهم بطنجة قبل المترجم اسرة بني سمجون الفقهاء الاعلام، وبسبتة الفقيه المشاور ابو جعفر اللواتي المعروف بابن القابسي شيخ القاضي عياض وغير هؤلاء.



على ان اسرة ابن بطوطة نفسها كانت اسرة علمية ظهر فيها القضاة ومشائخ العلم على ما اخبر هو عنها في الرحلة لما خيره ملك الهند في وظائف الوزارة والكتابة والامارة والقضاء والتدريس فقال: «اما الوزارة والكتابة فليست شغلي، واما القضاء والمشيخة فشغلي وشغل آبائي». وذكر في الرحلة ايضا انه لما قدم الى رندة في رحلته الى الاندلس كان القاضي بها هو ابن عمه الفقيه ابو القاسم محمد بن يحيى بن بطوطة. فهذا بيت ثان من لواتة نبغ بطنجة وان لم نحط بأفراده علما، لسكوت المؤرخين وكتاب التراجم عن ذكرهم. واولا هذه الاشارة العابرة من رحالتنا الى ما كان لاهله من مجد علمي لما عرفنا عنه شيئا من ذلك.

وكانت ولادة ابن بطوطة في مدينة طنجة يوم الاثنين 17 رجب عام 703 والدولة المرينية في عنفوان القوة، والشعب المغربي في اوج تقدمه العلمي والادبي، فمن الطبيعي ان ينشأ ابن بطوطة؛ وهو سليل اسرة علمية عريقة، على طلب العلم وينبت في حجر والديه نباتا حسنا. والظاهر انه انما درس على مشائخ بلده، اذ لا نعلم له رحلة في هذا الصدد قبل رحلته الكبرى.

اما طلبه العلم وتحصيله طرفا منه فمما لا شك فيك. ويدلنا على ذلك انه في اثناء رحلته لم يكن يخالط الا اهل العلم ولا يجنح

الا اليهم، واذا لقى احدا من كبار المشائخ، ومشاهير العلماء حرص على الاخذ عنه والقراءة عليه، وتخيره هذا لشيوخ الرواية هو وحده دليل على نزعة علمية اصيلة فيه.

ولا ننس انه لما كان بالبصرة وشهد صلاة الجمعة فيها بمسجد علي، لاحظ ان الخطيب يلحن لحنا كثيرا جليا على حد تعبيره، فعجب من ذلك وذكره للقاضي فقال القاضي له: «ان هذا البلد لم يبق به من يعرف شيئا من علم النحو» وهذا الامر حمله على ان يسجل هذه الملاحظة للاعتبار فيقول: «وهذه عبرة لمن تفكر فيها، سبحانه مغير الاشياء ومقلب الامور! هذه البصرة التي الى اهلها انتهت رياسة النحو وفيها اصله وفرعه ومن اهلها امامه الذي لا ينكر سبقه؛ لا يقيم خطيبها خطبة الجمعة على دؤوبه عليها!»

ثم لاننس انه ولي منصب القضاء على المذهب المالكي في مدينة دهلى بالهند مدة تنيف على سبع سنين ثم بجزيرة ذيبة المهل ايضا ما يقرب من سنة ونصف كما ولي قضاء الركب التونسي للحج فور انفصاله عن المغرب، ومات وهو قاض ببعض جهات المغرب كما ياتينا عن ابن مرزوق. فهذان الامران، وهما ملاحظة اللحن على خطيب البصرة وولايته للقضاء في بلاد عديدة، زمنا طويلا، يُرْشِدَانَنَا الى ما كان عليه من ثقافة لغوية وفقهية لا يستهان بها.

اضف الى انه كان ينظم شعرا وسطا على عادة العلماء المتفننين، وقد اعطانا نموذجا منه في الرحلة، وهو سبعة ابيات من قصيدة مدح بها ملك الهند، فهذا ايضا دليل على ثقافتة الادبية.

ولم يشر في الرحلة على طولها الى انه تلقى شيئا من الدراسات المماثلة لما ذكر عن احد من العلماء الذين لقيهم في البلاد المختلفة، وانما ذكر سماعه لبعض كتب الحديث على بعض كبار العلماء واجازتهم له، واخذه للعهد عن بعض مشائخ الصوفية على ما كان عليه الحال في الزمن الماضي، وتلك طريقة العلماء الذين يحرصون على سعة الرواية وعلو السند، فلا يقال انه درس اثناء رحلته، لان ذلك لا يفهم منه بحال.

وعليه فهو قد درس ببلده طنجة، وزاول دراسته في فجر حياته، لانه لما شد الرحلة كان ابن اثنين وعشرين عاما، وفي الوقت نفسه كان قد انتهى من الدراسة، وإذا دل هذا على شيء فعلى ان طنجة كانت غنية بعلمائها في ذلك الوقت، وهم من الصنف الذي يستغنى به الطالب في دراسته الكاملة فلا يحتاج الى الهجرة في طلب العلم. والغريب انه لم يسم لنا احداً من شيوخه هؤلاء ولم يذكر شيئا عن اوليته في الطلب، وانما المرجح ان يكون من بين شيوخه بعض اقاربه الذين قال عنهم ما قال.

هذا استنتاجنا بالنسبة الى تكوينه العلمي. واما بالنسبة الى تكوينه الخلقي فيظهر ان والديه اللذين لم يفتأ يحن اليهما اشد الحنين طوال رحلته، قد ربياه تربية دينية متينة. فكان قوي العقيدة، محافظا على اداء الشعائر الدينية، صبورا، صدوقا، واثقا بالعناية الالهية، لا سيما عند الشدائد. وذلك ما جعله يخاطر بالتوغل في اقاصي البلاد والرحلة الى اقطار العالم في زمن كانت المواصلات فيه شاقة جدا، والطرق غير مامونة، واكثر الشعوب والامم على عداء متصل فيما بينها. ومن الدليل على شدة تدينه ان باعثه الاول على الرحلة كان هو ارادة الحج واداء هذه الفريضة التي لا تجب على الفور، وهو لم يزل بعد في عنفوان الشباب وطراوة الاهاب، أمامه متسع من الوقت للقيام بهذه العبادة لو كان كغيره من الشباب يريد ان يقضي لبانات النفس من اللهو والمتاع ثم يستأنف حياة الجد والتدين بعد ذلك، ولكنه، كان شابا من طراز آخر يتمثل فيه قول الرسول (ص) في حديث السبعة الذين يظلهم الله بظل العرش: « وشاب نشأ في عبادة الله! »

وفى اثناء رحلته الطويلة كان لا يسمع برجل من الصالحين في بلد من البلدان ولو لم يكن على طريقه، الا عرج عليه وزاره وتبرك به وطلب منه الدعاء له ولوالديه. وكذلك كان لا يجنح

الا لافاضل الناس. ولا يصحب الا ذوي المروءات منهم. وشيء آخر وهو أنه منذ ابتداء رحلته، جرى على الاستفادة من سماحة الشريعة الغراء، فكان يتزوج في كل بلد يحل به وينوي الاقامة فيه، وربما تزوج في الطريق ويصطحب معه زوجته ولا يفارقها حتى تكون هي الراغبة في الفراق، يتحامى بذلك عن الوقوع في العنت وهتك حرمات اهل البلد الذي ينزله، وكل ذلك مما يدل على قوة دينه ونقاء عرضه.

ومن أخلاقه الاصيلة انه كان سريع التأقلم ان صح هذا التعبير، ونعني به التكيف بطبيعة الاقليم الذي يستقر به والاندماج في اهله ومواطأتهم على عاداتهم ومألوفاتهم حتى يصبح كانه واحد منهم وكأنما ولد بين ظهرانيهم وعاش معهم زمانا طويلا، ولعل لبلده طنجة التي هي طريق رئيسي بين الشرق والغرب وطبيعة اهلها المرحة المنشرحة دخلا في ذلك. وهذا على ما نظن مما كان له اثر كبير في تغلغله في الاوساط الاجتماعية المختلفة للبلاد التي زارها، اضف الى ذلك ما كان عليه من شدة الملاحظة وقوة الذاكرة فلا جرم ان تمتاز رحلته بكونها سجلا مهما للحياة الاجتماعية بل والسياسية والاقتصادية في اقطار لم نكن لنعرف عنها شيئا في الوقت الذي زارها فيه لولا انطباعاته هذه التي سجلها بكل دقة وامانة.

والى هنا نكون قد الممنا بالعناصر الاولية التي كونت هذه الشخصية القوية، ولعل عنصرا آخر ماديا يكون ضروري الاضافة الى هذه العناصر المعنوية، وهو متانة بنية الرجل وشدة أسره، ولا نعدم في الرحلة ما يدلنا على ذلك من المشاق والمتاعب بل والمعارك المسلحة التي اشترك فيها وواجهها بثبات وشجاعة. وبهذا تتم الصفات التي كان يتوفر عليها الرحالة الاسلامي الاكبر، والتي هي بتوفيق الله سبب نجاحه المنقطع النظير.

واذا قلنا الرحالة الاسلامي الاكبر فاننا نعني ما نقول، لانه لم يقم من بين المسلمين على كثرة الرحالين فيهم، من جاب هذه البلاد العديدة التي جابها ابن بطوطة في الشرق والغرب والشمال والجنوب، ودون مشاهداته فيها، وترك لنا مثل هذا الاثر الجغرافي الممتع الذي يقل له الكفاء، على انه حتى بين الاروبيين لم يقم رحالة يفري فريه قبل العصر الحديث. ولهذا نجد مثل سيتزن الرحالة الانكليزي يقول:

«أي مسافر اوروبي في هذا العصر يمكنه الافتخار بانه خصص قدر الزمن الذي يبلغ نصف حياة الانسان في سبيل التفتيش عن مثل هذا العدد من البلدان السحيقة وذلك بشجاعة لا يزعزعها شيء وبتحمل المشقات العديدة؟ بل اية امة اوروبية كان يمكنها

لخمسة قرون خلت ايجاد مسافر يجوب المناطق الاجنبية بمثل هذا الاستقلال في الحكم، وبمثل هذه المقدرة على المراقبة، وبمثل هذه الدقة في كتابة الملحوظات، الذي اتصف به هذا الشيخ المراكشي المشهور في المجلدين من كتابه؟ ان معلوماته عن الكثير من المقاطعات الافريقية المجهولة وعن نهر النيجر وعن بلاد الزنج (زنجبار) الخ لا تقل فائدة عن معلومات لاون الافريقي. اما جغرافية بلاد العرب وبخارى وكابول وقندهار فانها تستفيد كثيرا من كتابه، حتى اخباره عن الهند وسيلان وسومطرة والصين فانه من الواجب على انكليز الهند[1] ان يقرأوها باهتمام خاص!»

هذه الشهادة التي اوردها الاستاذ فؤاد افرام البستاني في روائعه، وهي واحدة من عشرات نظيرتها للعلماء الغربيين، تطلعنا على بالغ التقدير الذي يحظى به رحالتنا عند القوم، والمقام السامي الذي يحلونه فيه بين رحاليهم العصريين؛ ولئن كان الاستاذ المذكور ينبه على انه لا ينبغي ان نعد ابن بطوطة من جوابي الآفاق ودارسي المجاهل من علماء عصرنا، فاننا نذكره بان جوابا دارسا من هؤلاء لا يستطيع ان يجوب ويدرس في آن واحد مثل هذه الرقعة الفسيحة من سطح الكرة الارضية التي جابها ابن

1) يقول هذا لما كان للانكليز هند!

بطوطة ودرسها دراسة ان لم تكن وافية من الناحية العلمية فانها لا تقصر عن اي وصف جغرافي صحيح الا في مواطن قليلة، وقع له فيها غلط، واي عالم لا يغلط؟

على ان افاداته عن الاحوال الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لكثير من البلاد التي زارها، كانت وستبقى مصدرا هاما للكاتبين في تاريخ هذه البلاد والباحثين عن قصة الحضارة في القرون الوسطى.

وقد ردد ذلك التنبيه ولكن بصفة اكثر تحاملا على ابن بطوطة، كل من الاستاذين احمد العوامري بك ومحمد احمد جاد المولي بك فيما كتباه من ترجمة للرحالة بمقدمة مهذب رحلته، وان كانت هذه الترجمة لا تخرج عن ان تكون نسخة مصغرة مما كتبه صاحب الروائع.

وقد كتب صديقنا الاستاذ محمد عبد الله عنان بمقال له عن ادب الرواد المسلمين في مجلة «الرسالة»[1] كلمة فيها انصاف لرحالتنا، و لذلك يروقنا ان نثبتها هنا.

قال حضرته: «على ان اعظم الرواد المسلمين على الاطلاق هو ابو عبد الله محمد بن عبد الله الطنجي الشهير بابن بطوطة، ولم يكن ابن بطوطة رحالة عظيما فقط يجوب أنحاء العالم المعروف

---

1) عدد 56

يومئذ، بل كان ايضا مكتشفا عظيما يقصد الى مجاهل البر والبحر، وكتابه « تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار » وهو المعروف برحلة ابن بطوطة اجمل وانفس اثر عربي في هذا النوع من الادب.

وقد خرج ابن بطوطة من طنجة مسقط رأسه في سنة 725 هـ. (1325 م.) يجوب اقطار العالم، واخترق بلاد المغرب ومصر والشام وبلاد العرب وبلاد الروم وقسطنطينة، وفارس وخراسان وتركستان والهند وسيلان والصين وجزائر الهند الشرقية، واخترق في عوده قلب افريقية من السودان الى بلاد النيجر، ووقف على كثير من مجاهل بعض الاقطار والامم التي لم تكن معروفة يومئذ تمام المعرفة، ووصل الى اعالي نهر النيجر والى تمبكتو وسكوتو قبل ان يصل اليها الرواد الاوربيون ويكتشفها الرحالة الانجليزي منجوبارك بعد ذلك بنحو ثلاثة قرون، وسلخ في رحلاته نحو ربع قرن، وترك لنا عن اسفاره واكتشافاته ومشاهداته، ذلك الاثر الذي يعتبر بحق من ابدع آثار السياحة والاكتشاف »

واذ قد عرفنا قيمة الرجل واهمية الرحلة التي قام بها، فلنتأثر خطاه لمعرفة البلاد التي زارها والطرق التي سلكها، من غير ان نقف معه في بلد او طريق، الا نادرا جدا حين نمر بخبر طريف او نكتة حارة او وصف لشيء غريب يحسن الوقوف عنده.

ولا نستوعب في ذلك ايضا وانما نعطي امثلة قليلة منه لعلها تكون حافزا لمطالعة اخبار الرحلة كلها في كتاب تحفة النظار.

وقد رحل صاحبنا ثلاث رحلات، اولاهن وهي اطولهن، بدأها في يوم الخميس 2 رجب 725 وانتهى منها في يوم الجمعة اواخر شعبان عام 750 ومعلوم ان قصده الاول كان هـو الحج الى بيت الله الحرام وأن خروجه كان من طنجة، وانه كان له من العمر حين ابتداء الرحلة اثنان وعشرون عاما، وذلك في ايام السلطان ابي سعيد المريني الاكبر. وقد مر في طريقه بتلمسان وسلطانها يومئذ ابو تاشفين بن ابي حمو، ولم يمكث بها طويلا لانه رغب في صحبـة رسولي ملك تونس الى بلاط تلمسان، وهما القاضي أبو عبد الله النفـزاوي والشيخ ابو عبد الله الزبيـدي، وكانا قد انفصلا عنها يوم وصوله اليها فلحق بهما، وتوفي القاضي في الطريق فتأخر هذا الوفد لاجل دفن الميت. وارتحـل صاحبنا مع رفقة من التجار، ومات احدهم ايضا وترك مالا فسطا عليه عامل بجاية قال «وهذا اول ما شاهدته من ظلم عمال الموحدين» يعني الحفصيين اصحاب تونس. ثم مرض صاحبنا بالحمى ولكنه تحامل على نفسه، وكـان قـد لقى ثانيا الشيخ ابـا عبد الله الزبيدي فساعده كثيرا، وبعد لاي وصل الى تونس. قال «فبـرز اهلها للقاء الشيخ ابي عبد الله

الزبيدي ولقاء ابي الطيب بن القاضي ابي عبد الله النفزاوي (المتوفى) فاقبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال، ولم يسلم علي احد لعدم معرفتي بهم فوجدت من ذلك في النفس ما لم املك معه سوابق العبرة واشتد بكائي، فشعر بحالي بعض الحجاج فأقبل علي بالسلام والايناس وما زال يؤنسني بحديثه حتى دخلت المدينة ».

وهذا الضعف الذي بدا من صاحبنا في هذا الموقف هو مما يستغرب من رجل سيجوب فيما بعد اكثر المعمور، وينقطع عن موطنه واهله خمسا وعشرين سنة، الا انه كان الاول والآخر فلم نعد نراه شاكيا ولا باكيا، وقد برهن بما بدا منه بعد ذلك في غير موقف من التجلد وعدم المبالاة بالاخطار مهما عظمت، انه انما انفجر عند ابواب تونس لوداع المغرب، وان ذلك الضعف لم يكن له خلقا اصيلا كما حاول ان يلصقه به كل من كتب عنه من الكتاب المحدثين.

وعلى كل حال فقد دخل تونس ونزل بمدرسة الكتبيين منها، وكان سلطانها يومئذ هو ابو يحيى بن ابى زكرياء الحفصى، ومن اعلامها حينئذ ابن الغماز وابن عبد الرفيع وابن قداح الهوارى قال « ومن عوائده انه يستند كل جمعة بعد صلاتها الى بعض

اساطين الجامع الاعظم المعروف بجامع الزيتونة ويستفتيه الناس في المسائل فاذا افتى في اربعين مسألة انصرف» وقد حضر صلاة عيد الفطر بها وراى بروز السلطان الى الصلاة ثم خرج في ركب الحاج التونسي الى الحجاز وكان اكثره من المصامدة قال « فقدموني قاضيا بينهم » وولايته هذه للقضاء في فور انفصاله عن المغرب مما يدل على انه كان يتوفر على مؤهلات علمية كافية .

وخرج الركب من تونس في اواخر ذى القعدة سالكا طريق الساحل فوصل الى طرابلس في 13 من ذى الحجة وتزوج صاحبنا ببنت لاحد التونسيين، ثم انفصل عن الركب الذى اقام بطرابلس خوفا من البرد والمطر وغادرها هو أواخر محرم 726 في جماعة من المصامدة وتقدم عليهم، وفي اثناء الطريق وقع بينه وبين صهره التونسى مشاجرة ادت الى فراق بنته، ثم تزوج بنتا لبعض طلبة فاس، واولم وليمة حبس لها الركب الذي تلاحق بهم بعد ما كان قد تخلف في طرابلس .

وفي اول جمادي الاولى وصل الركب الى مدينة الاسكندرية، ويخصها الرحالة بوقفة طويلة وصف فيها عجائبها وذكر بعض علمائها، منهم قاضيها عماد الدين الكندي «امام من ائمة علم اللسان، وكان يعتم بعمامة خرقت المعتاد للعمائم، لم ار في مشارق

الارض ومغاربها عمامة اعظم منها، رأيته يوما قاعدا في صدر محراب وقد كادت عمامته ان تملأ المحراب»

وذكر انه وجد في الاسكندرية ملك تونس المخلوع أبا يحيى زكرياء ابن احمد بن ابي حفص المعروف باللحياني ومعه اولاده وحاجبه ووزيره.

وتجول في الاقاليم المصرية قصدا لزيارة بعض الصالحين، وفي احدى القرى جرى بينه وبين ناظر القرية حديث عن مبلغ جباية بلده طنجة فاخبره انها اثنا عشر الف دينار ذهب فعجب الناظر وقال له: «رأيت هذه القرية؟ فان مجباها اثنان وسبعون الف دينار ذهبا» قال «وانما عظمت مجابي ديار مصر لان جميع املاكها لبيت المال.» وفي مدينة أبيار حضر عند قاضيها يوم الركبة وهو يوم ارتقاب هلال شهر رمضان، وفي مدينة دمياط شاهد عجبا وهو انه «اذا دخلها احد لم يكن له سبيل الى الخروج منها الا بطابع الوالي، فمن كان من الناس معتبرا طبع له في قطعة كاغد يستظهر به لحراس بابها، وغيرهم يطبع على ذراعه فيستظهر به» وهذا الاجراء الذي كان يوحي به - ولا شك - موقع المدينة الحربي، يشبه ما نسمه اليوم بالجواز، ولم يقل صاحبنا ما كان حظه بالنسبة الى هذا الاجراء: هل الطبع في الكاغدا وعلى ذراعه فكان من اصحاب الاذرع الممدودة للكشف عنها عند الخروج؟

وركب الرحالة النيل من مدينة سمنود مصعدا الى مصر «ما بين مدائن وقرى منتظمة متصل بعضها ببعض» قال «ولا يفتقر راكب النيل الى استصحاب الزاد، لانه مهما ارادا النزول بالشاطيء نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك. والاسواق متصلة من مدينة الاسكندرية الى مصر، ومن مصر الى مدينة اسوان من الصعيد» ووصل الى مصر فبهرته بعظمتها ووصف مشاهدها ومعالمها وذكر اشياء من اخبار امرائها واخلاق اهلها، وكان سلطانها يومئذ محمد الناصر بن قلاوون، وقد اثنى عليه وحمد سيرته، واعجب بالزاوية التي عمرها خارج القاهرة، لكنه استطرد ففضل عليها الزاوية التي انشأها السلطان ابو عنان بخارج فاس الجديد. ثم ذكر قضاة مصر فقال ان اعلاهم منزلة واكبرهم قدرا هو القاضي الشافعي، وكان اذ ذاك هو العالم بدر الدين بن جماعة الشهير. وذكر العلماء ايضا فكان من بينهم النحوي الاندلسي المعروف ابو حيان، وسافر من مصر متوجها الى الحجاز بطريق الصعيد، وفي قوص عاصمة هذا الاقليم، رأى العالم فتح الدين بن دقيق العيد، وكان هو الخطيب بها، فأثنى عليه بالفصاحة والبلاغة والسبق في هذا المضمار وقال «لم ار من يماثله الا خطيب المسجد الحرام بهاء الدين الطبرى وخطيب مدينة خوارزم حسام الدين الشاطبي» واذا كان

خطباء العالم الاسلامي في ذلك العصر ثلاثة، فلا عجب ان نرى ما عليه الخطباء اليوم من العجز المخجل. وواصل صاحبنا سفره في صعيد مصر الى مدينة ادفو ثم ركب النيل الى مدينة العطواني، ومنها امتطى ظهر الجمال ودخل الصحراء مع جماعة من الاعراب الى مدينة عيذاب فوصلها بعد خمسة عشر يوما. قال واهلها البجاة وهم سود الالوان؛ وأميرهم يعرف بالحدربي وكان تحت السيطرة الاسمية للناصر بن قلاوون. ولقي صاحبنا فيها مشائخ منهم الشيخ المسن محمد المراكشي «زعم انه ابن المرتضي ملك مراكش (يعني الموحدي) وان سنه خمس وتسعون سنة.»

ولم يتأت لصاحبنا ان يبحر من عيذاب، الى جدة كما كان يؤمل لانه وجد صاحبها في حالة حرب مع الناصر، وقد خرق المراكب وتعطلت طريق البحر، فرجع عوده على بدئه مع قافلة الاعراب وقطع الصحراء ثانية الى الصعيد ثم الى قوص، وانحدر منها في النيل الى مصر، وكان اوان مده، فوصلها بعد مسيرة ثمان، ولم يلبث فيها الا ليلة واحدة وقصد الشام فاخترق شمال مصر كما اخترق جنوبها وذلك في منتصف شعبان 726 وفي مركز على الحدود يسمى قطيا وجد صاحبنا ديوانا للتفتيش اهم من الذي حكى عنه بدمياط، يوجد به العمال والكتاب والشهود، فتفتش فيه امتعة التجار

ويبحث عما لديهم اعظم البحث، وتوخذ منهم الاعشار، ولا يجاوزه احد الى الشام الا ببراءة من مصر ولا الى مصر الا ببراءة من الشام، احتياطا على اموال الناس وتوقيا من الجواسيس العراقيين، وذلك يدل على ان العلاقات السياسية بين ملوك مصر والمغول الحاكمين بالعراق لم تكن على ما يرام. ويقول الرحالة ان الطريق الفاصل بين البلادين كان في ضمان العرب قد وكلوا بحفظه، فاذا كان الليل مسحوا على الرمل حتى لا يبقى به اثر، ثم ياتي الامير في الصباح فينظر الى الرمل فان وجد به اثرا طالب العرب باحضار مؤثره، فيذهبون في طلبه فلا يفوتهم فياتون به الامير فيعاقبه بما شاء. وهكذا كانت سياسة الملوك والرؤساء، وما زالت، عاملا مؤثرا في فرقة العرب والمسلمين وتفكيك وحدتهم. ويعفي الامير صاحبنا ومن معه من الرسوم الواجبة والاجراءات اللازمة، حينما يتحقق انه مغربي، لان المغاربة لا يتعرض لهم في هذا المركز، ويوجد عند الامير موظف مغربي يسمى عبد الجليل هو الذي يقوم بمهمة التحقق من مغربية المسافرين. وبذلك لا يختلف هذا المركز عن أي مركز تفتيشي على الحدود بين بلادين مختلفين في هذا العصر حتى في تنصيب الخبراء في الاشخاص!..

ويصل صاحبنا الى غـزة من بلاد الشـام وينتقل منهـا الى الخليل ثم الى القـدس فيزور كل مـا يمر به من المعاهد والمشاهد، ويصف المسجد الاقصى، وقبة الصخرة، ويذكر اسماء مشائخ القدس وقد اخذ عن بعضهم العهد ثم يغادرهـا متنقلا بين عدة مدن الى ان يصل الى صور قال « وهي خراب وبخارجهـا قريـة معمورة واكثر اهلها ارفاض، ولقد نزلت بهـا مرة على بعض الميـاه أريد الوضوء، فاتى بعض اهل تلك القرية ليتوضأ، فبدأ بغسل رجليـه ثم غسل وجهه ولم يتمضمض ولا استنشق ثم مسح بعض رأسه، فاخذت عليه في فعله، فقال لي ان البنـاء يكون ابتداؤه من الاسـاس » ويواصل السير الى ان يصل بيروت ويقصد منها لزيـارة قبر ابي يعقوب يوسف الذي يزعمون انـه من ملوك المغرب قـال « وهو بموضع يعرف بكرك نوح من بقاع العزيز، وعليه زاوية يطعم بها الوارد والصادر» ثم يذكر حكايته في الفرار من الملك وما نسجه العوام حول ذلك من عناكب الخيـال. والمعروف ان ابـا يوسف يعقوب المنصور الموحدي هو الذي راجت حوله هذه الاسطورة[1]، وابن بطوطة يجعله ابا يعقوب يوسف فلعله اخطأ في اسمه ان لم يكن ذلك من تصحيف النساخ.

---

1) انظر الاستقصا ج ص ل 184

ويمضي صاحبنا في طريقه الى طرابلس فيصفها ويذكر من وجد بها من العلماء ومنهم شمس الدين بن النقيب. وما يزال ينتقل من بلدة الى اخرى حتى يصل مدينة حلب فينوه بها كثيرا، ويغلط في تسمية نهرها بالعاصى ظنا منه انه النهر الذي يمر بحماة، واسمه الصحيح القويق، على انه يشرح لنا سبب تسمية النهر بالعاصى شرحا طريفا فيقول: «قيل انه سمي بذلك لانه يخيل لناظره ان جريانه من اسفل الى علو» ولا ينسى ان يذكر من وجد بها من العلماء ومنهم ابن الزملكانى، ويمر بعد ذلك بانطاكية ثم بحصون الاسماعيلية «ويقال لهم الفداوية ولا يدخل عليهم احد من غيرهم، وهم سهام الملك الناصر، بهم يصيب من بعد عنه من اعدائه بالعراق وغيرها» الخ كلامه عنهم ثم يمر بمنازل النصيرية، الطائفة المعروفة، فيتحدث عنهم وعن هوسهم، وبجبل لبنان فيصفه بخصب التربة وجمال الطبيعة وبانه لا يخلو من المنقطعين الى الله تعالى، ومن لبنان يصل الى بعلبك فيذكر من خيراتها ومصنوعاتها الشيء الكثير ومن ذلك صحاف الخشب وملاعقه التي لا نظير لها في البلاد، يصنعون منها دسوتا يجعل بعضها في جوف بعض فيكون الدست يحتوي على عشر صحاف او ملاعق واحدة منها اصغر من الاخرى الى النهاية ويضعون لها غشاء من جلد تمسك به.

وفي 9 رمضان 726 وصل صاحبنا الى دمشق، وكان عظيم الاشتياق اليها. فنزل منها بمدرسة المالكية التي تعرف بالشرابشية. ووصفها فقال « ودمشق هي التي تفضل جميع بلاد الدنيا حسنا وتتقدمها جمالا وكل وصف وان طال فهو قاصر عن محاسنها»

ويجول فيها جولته فيتحدث عن الجامع الاموي باسهاب وعن غيره من المعاهد والمدارس والمزارات وعن الاوقاف الخيرية التي اوقفها اهل دمشق على السابلة والمحتاجين وتجهيز البنات الفقيرات الى أزواجهن واعانة العاجزين عن الحاج وفكاك الاسرى واصلاح الطرق، ويذكر ان لطرق دمشق رصيفين في جنبيها يمر عليهما المترجلون ويمر الركبان في وسطها ويحكي هذه الحكاية الطريفة مما يتعلق بالاوقاف الخيرية قال: «مررت يوما ببعض ازقة دمشق فرأيت مملوكا صغيرا قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصيني وهم يسمونها الصحن فتكسرت واجتمع عليه الناس فقال له بعضهم اجمع شقفها واحملها معك لصاحب اوقاف الاواني يجمعها وذهب الرجل معه اليه فاراه اياها فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن. وهذا من أحسن الاعمال، فان سيد الغلام لابد له ان يضربه على كسر الصحن او ينهره، وهو ايضا ينكسر قلبه ويتغير لاجل ذلك، فكان

هذا الوقف جبرا للقلوب، جزى الله خير من تسامت همته في الخير الى مثل هذا»

وبالجملة فهو ينوه كثيرا بأخلاق اهل دمشق وبحسن معاملتهم للغريب وكرم ضيافتهم، ومن كلامه يعلم ان دمشق في ذلك العصر كانت لا تزال عظيمة العمران برغم ما مر عليها من احداث وان المجتمع الاسلامي بها كان ارقى ما يكون. ثم يذكر من لقي بها من العلماء وهم جماعة كثيرة ومنهم ابن الشحنة سمع عليه البخاري في اربعة عشر مجلسا بقراءة البرزالي واجازه اجازة عامة كما اجازه غيره من اعلامها. ولم ياخذ عن ابن تيمية وان قال انه رآه.

وفي مستهل شوال السنة خرج من دمشق مع الركب الحجازي قاصدا معان ومنها دخل الصحراء «التي يقال ان داخلها مفقود وخارجها مولود» على حد تعبيره، فوصل المدينة المشرفة على صاحبها افضل الصلاة والسلام، وبعد قيامه بزيارة الروضة الشريفة وشفاء غليله من تلك المعاهد المنيفة توجه الى مكة المكرمة على الطريق المعتاد فأدى الفريضة على اتم وجه كما كان يؤمل وطاف بجميع المشاعر وزار كل المشاهد ووصف البيت الحرام والحياة في مكة واثني على احلاق اهلها احسن الثناء.

وفي 20 من ذي الحجة خرج من مكة صحبه الركب العراقي، وكان ركبا حافلا يحتوي على جمع من العراقيين والخراسانيين والفارسيين والاعاجم «لا يحصى عددهم، تموج بهم الارض موجا، ويسيرون سير السحاب المتراكم فمن خرج لحاجة ولم تكن له علامة يستدل بها على موضعه ضل عنه لكثرة الناس» اما تجهيز هذا الركب بالمواد والمؤون والادوية والاشربة ووسائل الراحة فحدث عنه ولا حرج، وكان اميره يدعى البهلون وهو من اهل الموصل، وجميع ما يتوفر عليه هذا الركب من الاستعداد الكامل هو من حسنات ملك العراق ابي سعيد. وقد قرب امير الركب صاحبنا واكرمه. ويعجبك حديث الرحالة عن الطريق بين الحجاز والعراق عبر نجد وخاصة عن مصانع الماء في الصحراء القاحلة وسير الركب ليلا، وقد اوقدت المشاعل أمام القطار والمحارات فترى الارض تتلألأ نورا والليل قد عاد نهارا، وبالجملة فان ركب الحج العراقي فيما يحدث صاحبنا لا يضاهيه ركب، وهو يتأخر بمكة عن الركبين الشامي والمصري اربعة أيام تفتح له فيها الكعبة الشريفة فيدخلها هو ومن ينضوي تحت لوائه ويكثر أفراده من الصدقة والعطاءات لاهل مكة حتى انهم «ربما وجدوا انسانا نائما فجعلوا في فيه الذهب والفضة الى ان يفيق» وتؤثر نفقاتهم السخية على سعر

الذهب بمكة فيرخص سومه وذكر الرحالة انه لما عاد الى مكة في سنة 728 بصحبة هذا الركب وقع التنويه باسم ملك العراق ابي سعيد على المنبر في الحرم. وما ذلك الا لان اللهي تفتح اللها كما يقولون.

ويترك صاحبنا الركب العراقي في النجف، بعدما يزور مشاهد آل البيت، فيقصد البصرة عن طريق واسط، ويصف المدينة العربية الشهيرة ويقص حكاية خطيبها اللحانة التي تقدمت ثم يجوب شط العرب ويخترق بلاد فارس وفي عبدان يلتقي باحد العباد فيدعو له بقوله «بلغك الله مرادك في الدنيا والآخرة» ويعقب هو بهذه العبارة «فقد بلغت بحمد الله مرادي في الدنيا، وهو السياحة في الارض، وبلغت من ذلك ما لم يبلغه غيري فيما اعلم، وبقيت الاخرى والرجاء قوي في رحمة الله وتجاوزه وبلوغ المراد من دخول الجنة» وهنا فقط اعرب عن ان مراده كان هو السياحة في الارض، ولم يكن قبل يذكر الا الحج. كما انه ذكر هنا عادته في سفره، وهي انه لا يعود من طريق سلكها ما امكنه ذلك، وانه كان يريد زيارة بغداد ولكن بعض اهل البصرة اشار عليه بالسفر صوب بلاد العجم فعمل باشارته لما كانت موافقة لعادته. وزار في هذه البلاد مدينة تستر واقام في ضيافة شيخها صدر الدين من ذرية سهل ابن عبد الله التستري الشهير 16 يوما قال «فلم ار اعجب من

ترتيبه ولا ارغد من طعامه.. وهذا الشيخ من احسن الناس صورة واقومهم سيرة، وهو يعظ الناس بعد صلاة الجمعة بالمسجد الجامع، ولما شاهدت مجالسه في الوعظ صغر لدى كل واعظ رأيته قبله بالحجاز والشام ومصر ولم الق فيمن لقيتهم مثله»

وزار ايضا مدينة اصفهان ووصف من ترف اهلها ما يقضي منه العجب، واخذ العهد عن بعض شيوخها وذلك في 24 جمادي الآخرة 727 ثم زار شيراز واثنى عليها كثيرا وجعلها نظيرة دمشق في كثير من الاوصاف، وذكر من غريب امورها ان النساء يجتمعن بها لسماع الوعظ كل يوم اثنين وخميس وجمعة في المسجد الاعظم وربما اجتمع منهن الالف والالفان بأيديهن المراوح يروحن بها على انفسهن من شدة الحر قال «ولم ار اجتماع النساء في مثل عددهن في بلدة من البلاد»، ولاحظ شدة تعظيم الاعاجم للعلم والعلماء حتى ان سلاطينهم ربما سموا ابناءهم باسماء مشيخة العلم، كسلطان شيراز ابي اسحق بن محمد شاه الذي سماه ابوه باسم الشيخ ابي اسحق الكازروني قال «والفقيه ببلاد الاعاجم كلها انما يخاطب بمولانا» وممن لقي بشيراز الشيخ مجد الدين اسماعيل بن محمد بن خداد اذ سمع عليه مسند الامام الشافعي ومشارق الانوار للصاغاني، ومن المشاهد التي زارها هناك قبر

الشاعر سعدي المشهور قال «وكان أشعر اهل زمانه باللسان الفارسي وربما الم في كلامه بالعربي»

ثم دخل البرية بعد ذلك قاصدا الكوفة ومنها توجه الى بغداد دار السلام وحضرة الاسلام كما قال، وكان يوجد بها في رجب السنة حين سمع مسند الدارمي على الشيخ سراج الدين القزويني ولم يطل الكلام عليها؛ لانها كانت في ادبار من امرها ، لكنه تبسط في الكلام على ملكها ابي سعيد بهادر وموكبه العظيم، وكان قد سافر بمعيته اياما، ثم زار تبريز فأعجب بسوقها الجامعة وخاصة سوق الجوهريين، حيث حار بصره مما رأى من انواع الجواهر، وهي بأيدي مماليك حسان الصور عليهم الثياب الفاخرة، واوساطهم مشدودة بمناديل الحرير وهم بين ايدي التجار يعرضون الجوهر على نساء الاتراك، وهن يشترينه كثيرا ويتنافسن فيه قال: فرأيت من ذلك كله فتنة يتعوذ بالله منها»

وكان ملك العراق ابو سعيد عرف انه يريد الحج الى بيت الله الحرام، فأمر له بالزاد والركوب في السبيل مع المحمل الا انه رأى الموسم لا يزال بعيدا، فسافر الى الموصل وديار بكر ثم عاد فلحق بركب العراق وكان اميره هو البهلوان سابق الذكر فاظهر من الاعتناء بصاحبنا ما لا مزيد عليه.. ووصل مكة وحج

ثانية عام 727 ولما كان قد اختار المجاورة بالحرم الشريف ، فقد حج ثالثة في العام الموالي، وحضر في هذه الحجة أناس من بلده طنجة ومن قصر المجاز ومن القصر الكبير، جلهم من الفقهاء، فتعرف منهم اخبار المغرب، ثم انه اقام مجاورا بمكة ايضا الى سنة 729 وحج للمرة الرابعة، وفي السنة التي بعدها وقعت فتنة بمكة فخرج منها الى جدة وركب البحر لاول مرة الى اليمن عبر سواكن، فطاف بأرجاء القطر العربي العريق، ولم ينس ان يسجل التشابه بين اليمنيين والمغاربة في كثير من الاحوال «مما يقوي القول بان صنهاجة وسواهم من قبائل المغرب اصلهم من حمير»

وابحر من عدن الى مدينة زيلع بالصومال ولاحظ عليها شدة القذارة بحيث انه لم يستطع المبيت بها، ففضل النوم بالمركب مع اضطراب البحر ثم توجه الى مقدشو عاصمة تلك البلاد ولقى سلطانها وهو يلقب بالشيخ، ومن غريب ما ذكر من احوالها انه عند ما تصدح الموسيقى الرسمية، لا يتحرك احد ولا يتزحرح من مقامه، ومن كان ماشيا وقف، كما يجري الان تماما في بعض البلاد ذات الحكم العسكري، وعاد الى اليمن عبر ظفار ثم عرج على هرمز وسيراف والبحرين ووصف مغاص اللؤلؤ فيما

بين تلك البلاد ورجع ادراجه فعبر الى القطيف مجتازا باليمامة قصد مكة، فحج للمرة الخامسة وذلك سنة 732 وذكر ان الملك الناصر ابن قلاوون حج في تلك السنة، ولكنه لم يتصل به على ما يظهر كما لم يتصل به في مصر.

وهنا يكون ابن بطوطة قد قضى في الرحلة سبع سنين ونصفا، وحج خمس مرات، وطاف العالم العربي كله وجانبا مهما من العالم الاسلامي، ومع ذلك فان القسم الاكبر من رحلته كان لا يزال امامه. ولنتأثره مسرعين، فقد اتى جدة واراد ان يبحر الى اليمن قصد الهند، ولكنه لم يجد مركبا ولا رفيقا، فعاد الى مصر بطريق الصعيد ثم الى الشام عن طريق بلبيس وركب البحر الى العلايا بجنوبي آسيا الصغرى قال: «وهي اول بلاد الروم» فجاس خلالها وتحدث عن أمرائها، وكان الاتراك حينذاك لم يستتموا وحدتهم بعد، فحديثه عنهم في هذه الفترة من تاريخهم السياسي له اهمية كبيرة، ومما يلفت النظر في حديثه عن هذه البلاد، منظمات الفتيان المسماةبالاخية التي كان يلتقي بها في طول البلاد وعرضها، وهي منظمات شبيهة بالنقابات والكشفية وتغلب عليها الصبغة الدينية والخلقية، فتنتظم فيها جماعات من الشباب ينتسبون الى مهنة معينة ويتخذون مقرا لهم يجتمعون فيه كل

ليلة ويأكلون ويشربون ويغنون ويرقصون مع المحافظة على الشعائر الاسلامية والاعتناء باكرام الضيف وتسلية الغريب واعانته على قضاء مآربه ولهم في هذه الطريقة التي يسمونها الفتوة سند يتصل بالامام علي كرم الله وجهه وشعارهم فيها لبس السراويل كما تلبس الصوفية الخرقة ولعلهم انما اتخذوا السراويل شعارا لما يهدفون اليه من التزام الصيانة والعفاف.

وانتقل صاحبنا الى شبه جزيرة القريم من ثغر صنوب بشمالي آسيا الصغرى، ثم الى آزاق فبلاد البلغار؛ التي وصلها في رمضان قال «فلما صلينا المغرب افطرنا واذن بالعشاء في اثناء افطارنا فصليناها وصلينا التراويح والشفع والوتر وطلع الفجر اثر ذلك، وكذلك يقصر النهار بها في فصله» وفي هذه البلاد الفسيحة ركب العربات لاول مرة واكل لحم الخيل وذاق البوزة وهي نوع من النبيذ، وبما ان اهل البلاد أحناف فانهم لم يكونوا يتحرجون من شربها. ولاحظ كثرة الخيل بها وانخفاض ثمنها بحيث يكون اصدارها الى الهند تجارة رابحة جدا. واتصل بالسلطان محمد ازبك خان في بلاطه المنتقل وهو «مدينة عظيمة تسير باهلها فيها المساجد والاسواق» وقد حظى عند هذا السلطان حتى ارسله بمعية احدى زوجاته الاربع الى القسطنطينية، وكانت تقصد زيارة أبيها ملك الروم،

فاتيحت لـه فرصة زيارة العاصمة البيزنطية الشهيـرة ولم تكن فتحت بعـد.

وعاد الى مدينـة السّرا عاصمـة السلطان اوزبـك ثم اخترق طريق خوارزم فبخـارى وسمرقند وترمذ فخراسان فافغانستان الى الهند، ويطول بنا الامر لو وقفنا معـه في اي بلد من هذه البـلاد وتتبعنا ملاحظاته الدقيقة واحاديثه الطليـة عن البلاد واهلها.

وقد وصل الى الهند في محرم 734 وفي الحين أخبر به ملك الهند محمد شاه بن تغلـق، اذ كان ذلك هـو النظام المتبع في هذه البلاد، لا يجاوز احد حدودها حتى يرفع به الى الملك، فصدر الامر باكرامه والاعتناء به ثم اتصل به بعد ذلك في 4 شوال السنة وحظى عنده وخيره في مناصب الدولة على ما سبقت الاشارة اليه فاختار القضاء لانه منصب آبائه، وفعـلا ولي القضاء المالكي بعاصمة الهند دهلي الى سنة 742 اي ما ينيف على سبعـة اعوام وبذلك امكنه ان يذكر من احـوال هذا الملك وبلاطـه وحاشيته الشيء الكثير وخاصة عن كرمه واعطيته الخيالية التي لا يفـوت صاحبنا ان يصرفها بالعملة المغربية ليدل على اهميتها، وكذلك ذكر فتكاتـه التي تغطي على احسانه مما لا يمكـن تلخيصه الا اذا جاوزنـا الحد الذي نلتزمه في هذه التراجم. والحقيقة ان كتابته عن الهند وعن

امرائها وعن احوالها الاجتماعيـة ، وهي تكاد تستبد بالجزء الثاني من الرحلة، هي من خير ما كتب ابن بطوطة تعريفا بالبـلاد التي زارها وستبقى مرجعاً هاما للمؤرخين والباحثين في شؤون الهند وحضارة اهله تحت الحكم الاسلامي .

وفي جمادي الآخرة من عام 742 ترك الهند على رأس سفارة عظيمة الى الصين وبرغـم الاستعدادات الفائقة، فان هـذه السفارة قد تعوقت عن الوصول الى غايتها وطوحت الاقـدار بصاحبنا الى جزائر ذيبة المهل بالمحيط الهندي. حيث اقام عاما ونصفا وولى القضاء من طرف سلطانتها خديجة بنت جلال الدين وهو يحكي غرائب عن حياة اهل هذه الجزائر لانه بحكم اقامته هذه المدة بين اظهرهم وتوليه السلطة فى بلادهم تعرف على كثير من احوالهم.

ثم غادر هذه الجزائر متوجها الى الصين عن طريق سيلان فبنغالة فالملايو فسومطرة فالزيتون التي هي ميناء صينية على المحيط الهادي تعرف الآن بتسيوان تشو وتوغـل صاحبنا في داخل البـلاد التي تقع على مقربة من ساحل المحيط الاعظم حتى وصل خان بالق التي هي بكين عاصمة الصين اليوم، ومع انه لم يجب الصين كما جاب الهند فانه لم يخل رحلته من اخبار مهمة عن هذه البلاد ولا سيما احوال المسلمين بها، وتحدث عن براعـة الصينيين في فن

التصوير وصناعة الفخار، وعن تعاملهم بأوراق النقد وادخارهم الذهب والفضة بشكل سبائك كما يعمل مصرف أي دولة في هذا العصر. واستمع الى حديثه عنهم في التصوير «ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك اني ما دخلت قط مدينة من مدنهم ثم عدت اليها الا ورأيت صورتي وصور اصحابي منقوشة في الحيطان والكواغد موضوعة في الاسواق» الخ وما ندري هل اصطحب معه صورة منها ام لا؟

اما حديثه عن امن الطرق والتحفظ على اموال الناس وسهولة المواصلات وتنظيم الملاحة التجارية فشيء لا يقل عما لدى ارقى الدول العصرية اليوم، وفي الشرق على العموم كانت الطرق حسبما يروي صاحبنا، مامونة ومقسمة الى مراحل يجد فيها المسافر كل ما يحتاج اليه وبعضها كما في بلاد المليبار، كان مكتنفا من الجانبين في اكثره بدكاكين التجار وبعضها كالطريق بين دهلي ومدينة ظهار كانت عليها النصب فيها عدد الاميال التي قطعها المسافر والتي بقيت له، فالامر كما يقال لا جديد تحت الشمس.

ومن الصين ينكفيء صاحبنا راجعا عن طريق سومطرة فالهند فاليمن فبلاد العجم فالعراق فالشام فمصر الى ان يصل مكة

في 22 شعبان 749 فيقيم بها الى موسم الحج ويحج للمرة السادسة ثم يسافر الى المدينة المنورة ومنها الى القدس ثم الى مصر وينثني عائدا الى المغرب بعد ان غاب عنه 25 سنة فيدخل فاسا في اواخر شعبان عام 750 هـ. ويمثل بين يدي السلطان ابي عنان المرينى فيغمره باحسانه كما قال ويثني عليه احسن الثناء بل يعمل مقارنة بينه وبين من شاهدهم من ملوك الدنيا فيفضله عليهم.

* * *

لم تستقر النوى بصاحبنا بعد رحلته الاولى هذه، حتى عاد فبدأ رحلته الثانية في مملكة غرناطة بالاندلس وذلك ليلا يفوته هذا القسم من العالم الاسلامي مع انه برؤية منه ومسمع، فقد اصبح الان حريصا على استيعاب البلاد الاسلامية بالزيارة ليتأتى له ان يقول مفتخرا على السائح المصري الذي لقيه بمدينة برصى (وهو من الصالحين جال الارض الا انه لم يدخل الصين ولا جزيرة سرنديب ولا المغرب ولا الاندلس ولا بلاد السودان وقد زدت عليه بدخول هذه الاقاليم) وليصبح بعد ذلك (مسافر العرب والعجم) كما قال له الشيخ جلال الدين التبريزي في بنغالة.

وقد خرج صاحبنا في هذه الرحلة من بلدة طنجة فمر بسبتة وجبل طارق وكان خاضعا للمغرب ثم مر برندة فمالقة فغرناطة

وكان ملكها حينئذ ابو الحجاج يوسف بن اسماعيل بن نصر، ولقى بها من الاعلام، ابا القاسم الشريف وابا سعيد بن لب وابا البركات ابن الحاج وابا القاسم بن عاصم. وقد ذكره ابن الخطيب في الاحاطة ولم يزد على تسميته شيئا غير ما نقله من خط شيخه ابي البركات تبيينا لحاله ونصه: (هذا رجل لديه مشاركة يسيرة في الطلب، رحل من بلاده الى بلاد الشرق يوم الخميس الثاني من رجب عام خمسة وعشرين وسبعمائة، فدخل بلاد مصر والشام وعراق العجم وبلاد الهند والسند والصين وصين الصين وبلاد اليمن وحج عام ستة وعشرين وسبعمائة، ولقى من الملوك والمشائخ عالما وجاور بمكة واستقر عند ملك الهند فحظى لديه وولاه القضاء، وافاد مالا جسيما، وكانت رحلته على رسم الصوفية زيا وسجية، ثم قفل الى بلاد المغرب ودخل جزيرة الاندلس فحكى بها احوال المشرق وما استفاد من اهله فكذب)

وقال «لقيته بغرناطة وبتنا معه ببستان ابي القاسم بن عاصم بقرية نبلة، وحدثنا في تلك الليلة وفي اليوم قبلها عن البلاد المشرقية وغيرها فاخبر انه دخل الكنيسة العظمى بالقسطنطينة

العظمى، وهي على قدر مدينة مسقفة كلها، وفيها اثنا عشر الف أسقف[1] »

وقد عقب ابن الخطيب على هذه الفذلكة بقوله: «قلت واحاديثه في الغرابة ابعد غورا من هذا. وانتقل الى العدوة فدخل بلاد السودان ثم ان ملك المغرب استدعاه فلحق به وامره بتدوين رحلته »

وهذا الاجتماع الذي كان في بستان ابن عاصم اشار له صاحبنا في الرحلة وحكى انهم اقاموا فيه يومين وليلة، وزاد كاتب الرحلة ابو عبد الله بن جزي فقال « كنت معهم في ذلك البستان ومتعنا الشيخ ابو عبد الله (يعني ابن بطوطة) باخبار رحلته وقيدت عنه اسماء الاعلام الذين لقيهم واستفدنا منه الفوائد العجيبة».

* * *

وعاد صاحبنا الى فاس، فلم ينشب ان شرع في رحلته الثالثة الى بلاد السودان. وفي سجلماسة اخذ اهبته لهذه الرحلة والتحق برفقة يرأسها احد رجال مسوفة، وذلك في غرة محرم فاتح 753، فبعد 25 يوما وصل الى تغازي، وهي قرية الملح

---

1) هذا مخالف لما في الرحلة فانظرها .

بناؤها من احجار الملح المسقفة بجلود الجمال، وتجارتها في الملح مع السوادين تجارة عظيمة. وبعد استراحة عشرة ايام، استأنف الرحلة عبر الصحراء، وكانت رحلة شاقة ومحفوفة بالمخاطر، واخيرا وصل الى مدينة ايوالاتن اول عمالة السودان وهي مدينة اكثر سكانها من مسوفة، وهم مع محافظتهم على الصلاة وقراءة القرآن وطلب العلم، لا غيرة لهم على ازواجهم، وللنساء هنالك حياة اجتماعية متحررة من كل القيود.

وخرج صاحبنا من ايوالاتن متوجها صوب مالي عاصمة البلاد فلقي سلطانها منسي سليمان، ولم ينل منه خيرا، غير انه وصفه بالعدل والاستقامة واتى بوصف معجب لبلاطه ولخروجه الى صلاة العيد، ثم توجه الى تمبكتو ومنها الى تكدا، ووصل في تنقلاته بين هذه المدن الى نهر النيجر، فظنه النيل، ورأى التمساح في بعض ضفافه «كأنه قارب صغير» كما رأى فرس البحر في بعض خلجانه؛ ومن المحقق انه جاب في هذه الرحلة اماكن لم يصل اليها سائح من قبله، ووصفها وصفا معجبا. فلهذا القسم من رحلته اهميته التي لا تقل عن اقسامها الاخرى.

وبينما هو في تكدا وافاه امر السلطان ابي عنان بالرجوع الى المغرب، فكر راجعا الى سجلماسة عن طريق توات. وفي

نهاية عام 754 وصل الى فاس بعد ان قضى في هذه الرحلة عامين كاملين، وباضافتهما مع الزمن الذي قضاه في رحلة الاندلس يكون قد صرف زهاء ثمانية وعشرين عاما في التنقل والترحال، فما اعظمها من همة! وهكذا تكون الرجال!.

وامره السلطان باملاء رحلته على الكاتب ابي عبد الله بن جزي، وهو احد اولاد العالم ابي القاسم بن جزي، فقام هذا بما كلف به من ضم اطراف الرحلة وترتيبها، وتصنيفها وتهذيبها وسماها تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار، وانتهى من ذلك في 3 ذي الحجة عام 756 ... وكأن السلطان ابا عنان لما وفد عليه ابن بطوطة اولا في عام خمسين غفل عن امره بتدوين رحلته، والعذر له، فقد كان مشتغلا بتثبيت دعائم ملكه، ومصارعة اعدائه. ثم تنبه للامر بعد ذلك فنفذه كما رأيت، باستدعاء ابن بطوطة من اقصى بلاد السودان، على انه قد قيل انه كان موفدا من قبله الى تلك الديار في مهمة، ولا يظهر ذلك من سياق الخبر في الرحلة.

وبعد انتهاء الرحلة ينسدل حجاب كثيف على حياة ابن بطوطة التي وان طالت بعد ذلك اكثر من عقدين من السنين فاننا لم نعد نعرف عنها شيئا بعد ان لابسناها وصاحبناها في

افراحها واتراحها مدة ثمان وعشرين سنة، غير ان ابن حجر في «الدرر الكامنة» نقل من خط ابن مرزوق: «انه بقي الى سنة سبع وسبعين ومات وهو متولي القضاء ببعض البلاد» فيرشد هذا الكلام الى انه حظى عند بني مرين وولوه منصب القضاء الذي قال عنه «انه شغله وشغل ابائه»

ويزيد ابن مرزوق فيقول، فيما قرأه ابن حجر بخطه: «ولا اعلم احدا جال في البلاد كرحلته، وكان مع ذلك جوادا محسنا» وهي شهادة لرحالتنا من العلامة ابن مرزوق تعضدها قراءة الرحلة. على ان ابن حجر اشار ايضا الى دفاع ابن مرزوق عن الرحالة فيما كان من اتهام ابي البركات بن الحاج له فقال: «وكان البلفيقي رماه بالكذب فبرأه ابن مرزوق، والبلفيقي هو ابو البركات بن الحاج. وقد سبق نقل كلامه عن الاحاطة.

ولم يبين ابن مرزوق الجهة التي كان ابن بطوطة يتولى بها القضاء، ولكن ابن الخطيب في «نفاضة الجراب» اثبت نص كتاب وجهه الى صاحبنا بصفته قاضي تامسنا، يرجو منه المساعدة على شراء قطعة ارض بجواره، يعدها للفلاحة عند الحاجة، وذلك لما قرر الاستقرار بالمغرب، فمن هذا نعرف مكان ولايته للقضاء الذي كان هو محل وفاته.

وعلى ظاهر كلام ابن مرزوق، فـان ابن بطوطة توفي سنـة 777 وفي دائرة المعارف الاسلامية انه توفي سنة 779 وعليه كثير من الكتاب المحدثين .

ومن هنا يعلم انه لم يتوف بطنجـة، وان كان يوجد بها ضريح ينسب اليـه، ويفد الرحالـة من كل جنس اذا قدموا طنجـة عليه. لكننا نستريب في ان يكون ذلك هو مرقد الرحالة الحقيقي.

اولا ـ لان وفاته لم تكن بطنجة .

ثانيا ـ لان اسم صاحب الضريح في ألسنـة الناس احمد بن عـلال وليس هو اسم بطوطة .

ثالثا ـ لان طنجـة خضعت للاحتـلال الاجنبي: البرتقالي ثم الانجليزي ما ينيف على قرنين من الزمن بعد موت ابن بطوطة، فيبعد ان يبقى قبره محفوظا ومعروفـا بعد هذه المدة الطويلة التي تغيرت فيها معالم المدينة من جميع الوجوه. وعلى كل حال فهو، وان يكن ذا صفة رمزيـة، ضريح متواضع جدا لا يتناسب وعظمة الرجل الذي طبقت سمعته الافاق .

وقبل ان نختم هذه الترجمة لا بد ان ننقل ما كتبـه ابن خلدون في مقدمته عن رحلة صاحبنا، لان فيه ردا على ما سبق عن ابن الخطيب من الاسترابة باخبار الرحالة الصدوق، قال ابن خلدون.

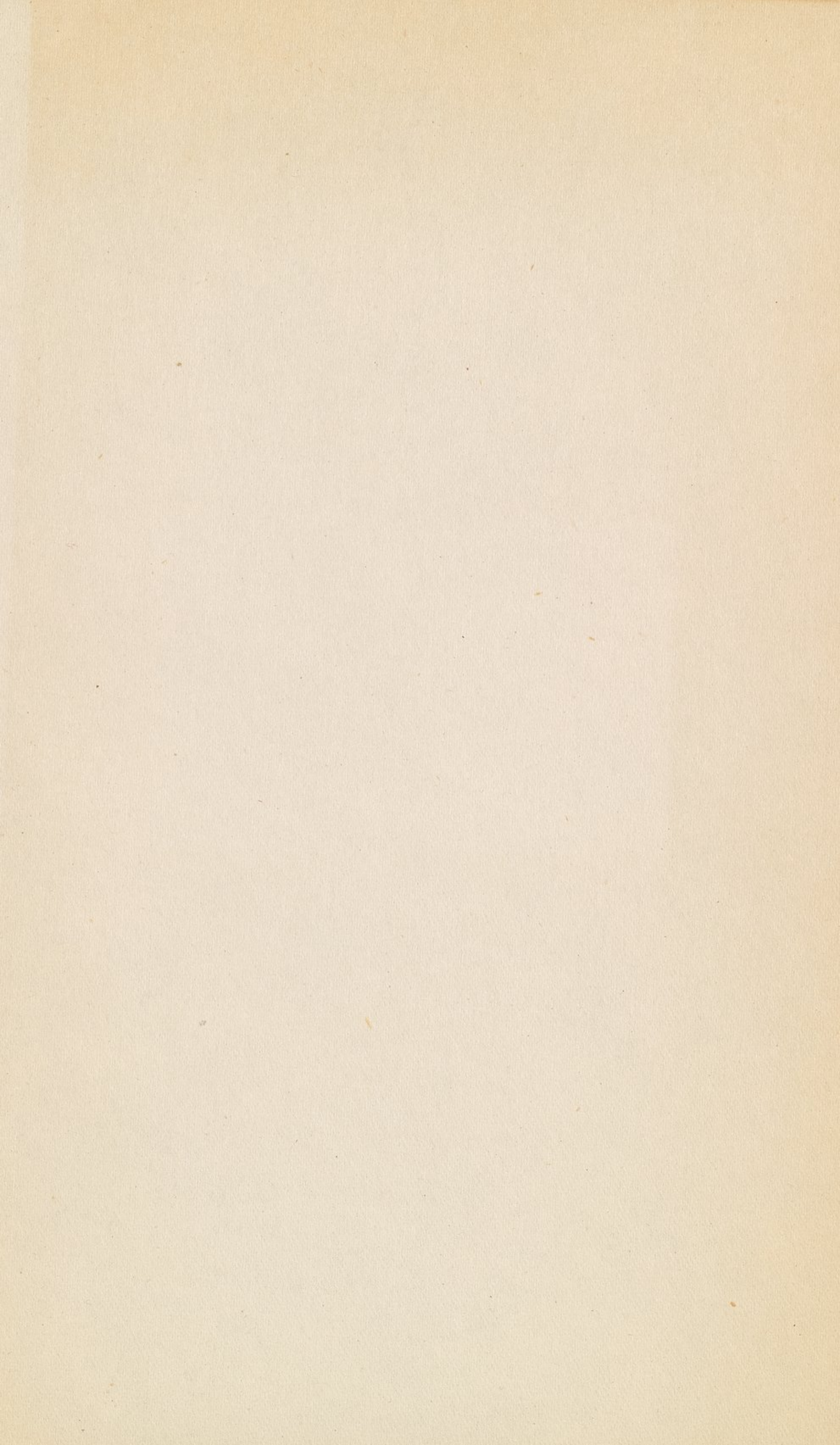
«ورد على المغرب لعهد السلطان ابي عنان من ملوك بني مرين، رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة، وكان قد رحل منذ عشرين سنة قبلها الى المشرق وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند ودخل مدينة دهلي حاضرة ملك الهند، واتصل بملكها لذلك العهد، وهو السلطان محمد شاه، وكان له منه مكان واستعمله في خطة القضاء بمذهب المالكية في عمله، ثم انقلب الى المغرب واتصل بالسلطان ابي عنان، وكان يحدث عن شأن رحلته، وما رأى من العجائب بممالك الارض، واكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند ويأتي من احواله بما يستغربه السامعون، مثل ان ملك الهند اذا خرج للسفر احضر اهل مدينته من الرجال والنساء والولدان وفرض لهم رزق ستة اشهر يدفع لهم من عطائه، وانه عند رجوعه من سفره يدخل في يوم مشهود يبرز فيه الناس كافة الى صحراء البلد ويطوفون به وينصب امامه في ذلك المحفل منجنيقات على الظهر يرمي بها شكائر الدراهم والدنانير على الناس الى ان يدخل ديوانه، وامثال هذه الحكايات، فتناجى الناس في الدولة بتكذيبه، ولقيت انا يومئذ في بعض الايام وزير السلطان فارس بن ودرار البعيد الصيت، ففاوضته في هذا الشأن واريته انكار اخبار ذلك الرجل، لما

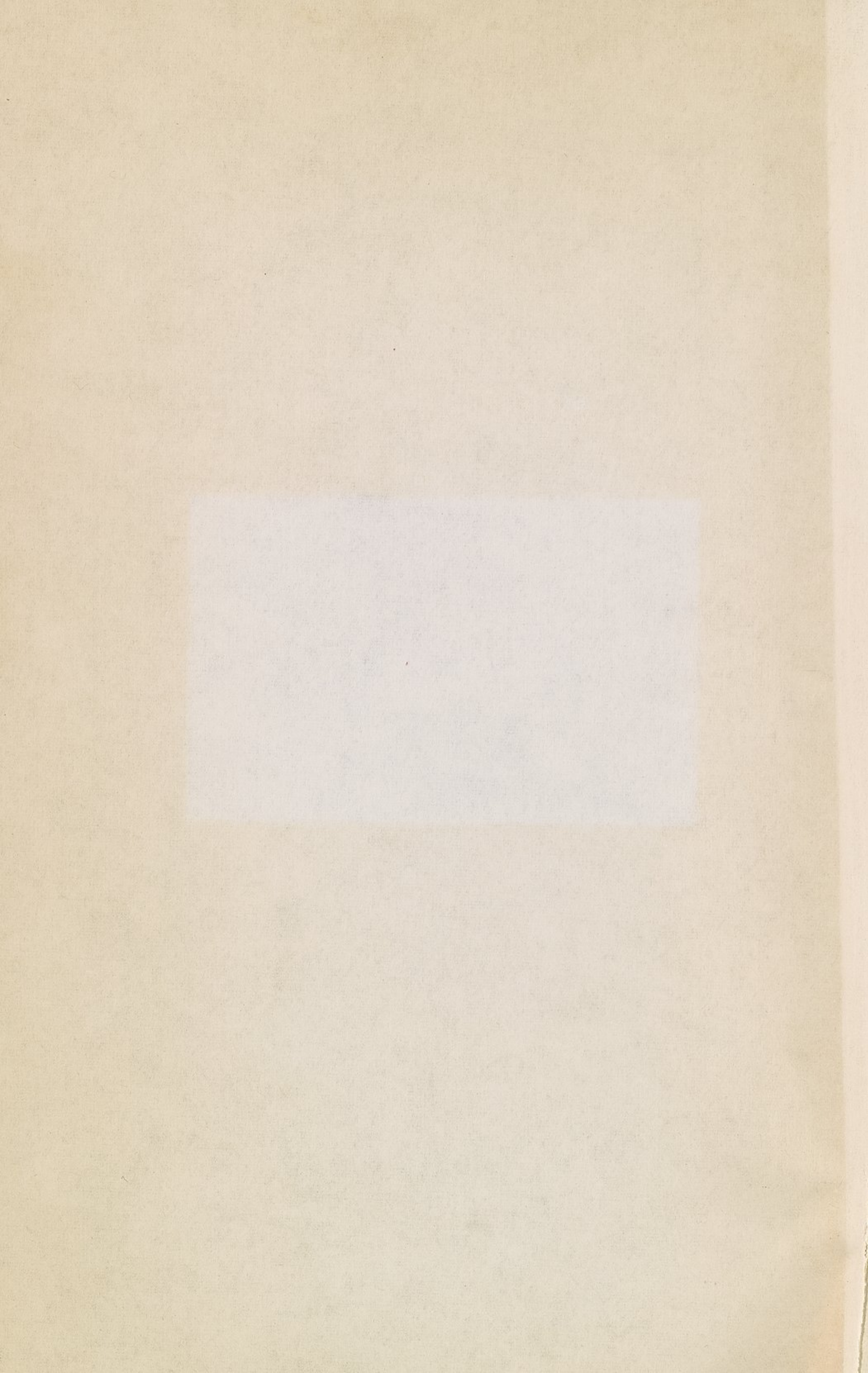
استفاض في الناس من تكذيبه فقال الوزير فارس: اياك ان تستنكر مثل هذا من احوال الدول بما انك لم تره فتكون كابن الوزير الناشئ في السجن، وذلك ان وزيرا اعتقله سلطانه فمكث في السجن سنين ربا فيها ابنه في ذلك المحبس، فلما ادرك وعقل سأل عن اللحمان التي كان يتغذى بها، فاذا قال له ابوه هذا لحم الغنم يقول وما الغنم؟ فيصفها له ابوه بشياتها ونعوتها، فيقول يا أبت: تراها مثل الفار، فينكر عليه ويقول اين الغنم من الفأر، وكذا في لحم البقر والابل، اذ لم يعاين في محبسه الا الفأر، فيحسبها كلها ابناء جنس للفأر، وهذا كثيرا ما يعتري الناس في الاخبار، كما يعتريهم الوسواس في الزيادة عند قصد الاغراب، كما قدمناه اول الكتاب. فليرجع الانسان الى اصوله، وليكن مهيمنا على نفسه، ومميزا بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله، ومستقيم فطرته، فما دخل في نطاق الامكان قبله، وما خرج عنه رفضه، وليس مرادنا الامكان العقلي المطلق فان نطاقه اوسع شيء، فلا يفرض حدا بين الواقعات، وانما مرادنا الامكان بحسب المادة التي للشيء، فاذا نظرنا اصل الشيء وجنسه وفصله ومقدار عظمه وقوته اجرينا الحكم في نسبة ذلك على احواله وحكمنا بالامتناع على ما خرج عن نطاقه، (وقل رب زدني علما)».

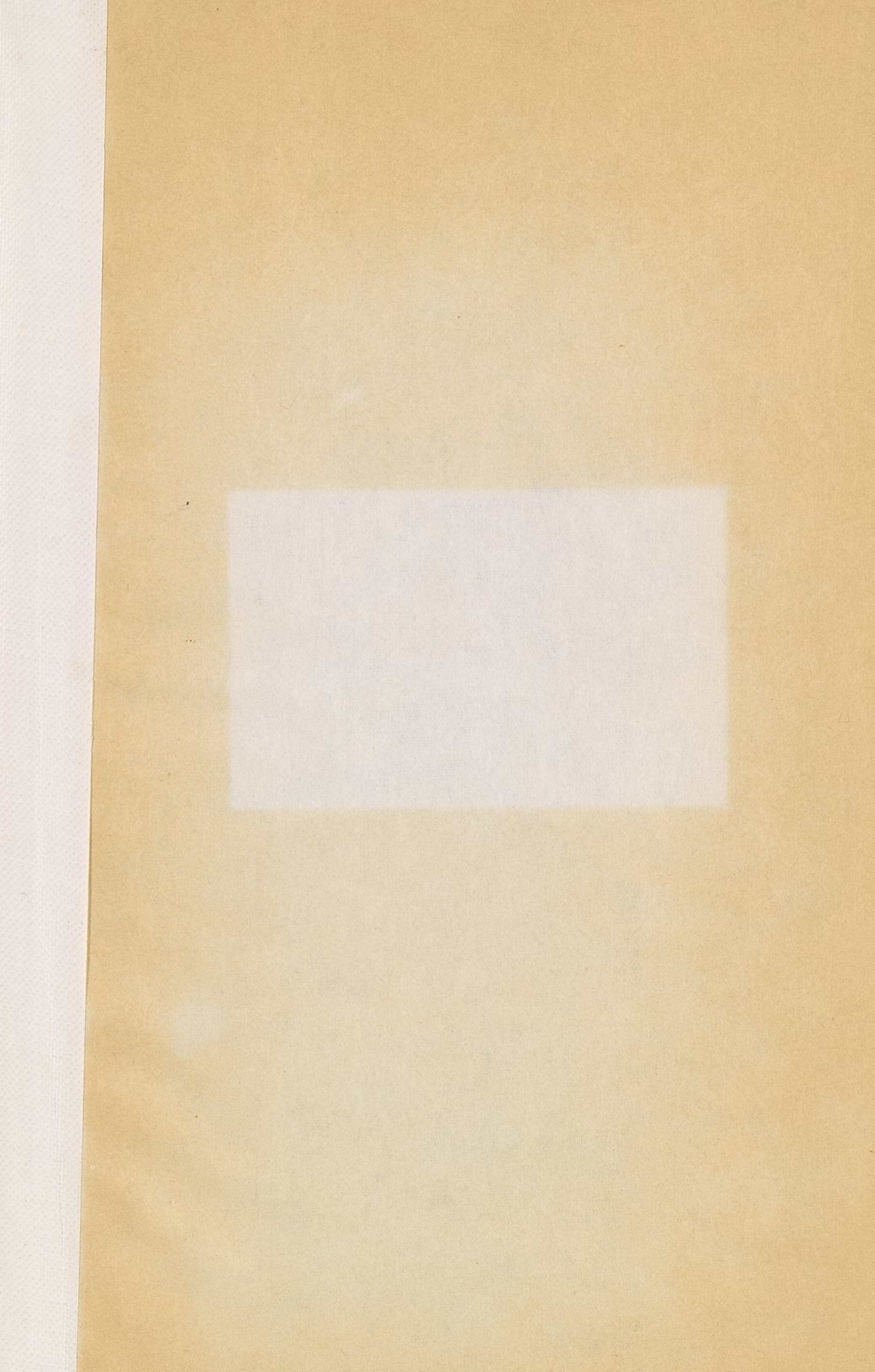
وهناك ايضا انتقاد آخر على الرحلة وجهه بعض كتاب الشرق وهو ان اسلوبها الانشائي لا يخلو من ضعف سواء من حيث استعمال بعض الالفاظ العامية او اللحن ؛ ومن ثم يتلخصون الى التشكيك في ثقافة الرجل اللغوية، فالدكتور محمد مصطفى زيادة في محاضرته عنه يقول حين تعرض لملاحظته اللحن على خطيب البصرة : «غير ان هذه الملاحظة تدعو الى الالتفات، فكتاب رحلة ابن بطوطة كما كتبه ابن جزي لم يخل من اخطاء نحوية، فضلا عن احتوائه على تعبيرات غريبة، وأساليب قد تخالف ما نعهده للفصحاء، فهل يكون معنى هذا ان ابن بطوطة لم يقرأ نص رحلته بعد اتمامها، ليصلحها ويضبطها ضبطا صحيحا ؟» وكاتبا مهذب الرحلة كثيرا ما يعلقان على الفاظ للمؤلف بما يدل على انهما لم يفهما المراد منها .

والجواب عن هذا الانتقاد ان المؤلف حقيقة استعمل بعض الالفاظ الجارية على ألسنة الناس في المغرب، للتوضيح والبيان وليست كلها عامية بل ان منها ما هو فصيح صحيح، وانما لم يجر على ألسنة الناس في المشرق، وهذا الصنيع قد ارتكبه كثير من الكتاب قديما وحديثا فلا حرج على المؤلف فيه، وكنا نود لو اتسع لنا المجال، فتتبعنا تلك الالفاظ كلها بالشرح والبيان . واما

اللحن فلا يصح مطلقا نسبتــه الى انشاء الرحلـة، كيف والمشرف على تحبيرها هو الكاتب ابو عبد الله بن جزي، وهو من كبار أدباء المغـرب والاندلس في وقتــه؟ وهــي فعلا، مـع تشويهها بالطبـع الرخيص لا يوجد فيهـا لحن مطلقا. وعلى كل حـال، فالدكتور زيادة الذي يقع في كلامه مثل هذه العبـارة «واضحـى سلاطيـن المماليك يفرضون لانفسهم مكانا ساميا على ملوك العالم الاسلامي، باعتبارهم حماة (بضمة على التاء) الخلافـة (والمتمتعـون) ببيعتها» ويقول «غير ان هذا الحديث (المبروك)» ويقول: «تمتـاز كتب الرحلات، (من) دون الكتب التي (نتشوف) منها احوال القـرون الخالية» لا يحق له ان يتحدث عن اللحن ومخالفة اساليب الفصحاء في كلام غيره. والكمال لله.







ابن بطوطــة